الكوميديا الالهية
ومخطوطة المعراج الاندلسية

د . نذير العظمة

١ ــ مقدمــة :

في مؤتمر جمعية الاستشراق الاميركية المنعقد في جامعة جنوب كاليفورنيا بتاريخ ٢ ــ ٣ نيســان ١٩٧٩ كنت القي كلمة عن رسالة الغفران واثرها في الادب العربي الحديث وخاصة في قصيدة الزهاوي الملحميــة « ثورة في الجحيــم » (١٩٣١) ومسرحيــة الغفران لبنت الشــاطىء (١٩٧٠) ومسرحية الغفران للكاتب المسرحي التونسي عز الدين المدني التي اخرجها الطيب الصديقي على مسرح محمد الخامس في الرباط وشاهدت المسرحية في عرضها الاول (١٩٧٦) .

وكنت قد الزمت نفسي الا اخرج عن دائرة البحث التي حددتها الا وهي مؤثرات الرسالة في الادب الحديث ، ولو انتهائي من القاء الكلمة جاء دور الاسئلة والاجوبة ، استوقفني سؤال منها طرحه الدكتور جورج حداد وهو استاذ عزيز على قلبي كان قد علمني تاريخ الحضارة في الجامعــة السورية في دمشق أيام كنت طالبا في قسم اللغة العربية سنة الثقافــة العامة . وجاء سؤال الدكتور حداد بصيغة التقرير ومنتهى الادب واللطف

اللذين عهدهما فيه كل من له معرفة علمية بالاستاذ الجليل : طبعا انت واع لمؤثرات رسالة الغفران على الادب العربي وخاصة الكوميديا الالهية؟! مشيرا الى دراسة آسين بلاسيوس في هذا الخصوص التي تناولت مؤثرات المصادر الاسلامية في الكوميديا وخاصة الرسالة والمعراج وصوره الكثيرة التي لم ينحصر اثرها في دوائر الآداب العربية والفارسية والتركية بل تعدتها لتقترن بنشوء الادب الاوربي في عصر النهضة وبزوغه وخاصة الكوميديا الالهية لدانتي (١٣٢١ — ١٢٦٥) الامر الذي يطرحه بلاسيوس في كتاب مستقل اعتمدنا هنا ترجمته الانجليزية في هذه الدراسة سنتناول مصادر جديدة للبحث لم يعرفها بلاسيوس رغم انها تؤيد اطروحته ومقولته ، اما لانها لم تنشر في عهده او لم تكتشف . ومن المؤسف الا تنقل القضية التي طرحها بلاسيوس في كتابه الاسلام والكوميديا الالهية الى القارىء العربي نقلا موضوعيا امينا فلم يترجم الكتاب الى اللغة العربية . وعلق عليه تعليقات مبتسرة مجتزاة عتمت على طرحه العلمي واضاعت على القارىء فرصة المعرفة السليمة .

يتسم عرض بلاسيوس بفهم القضية فهما شموليا فهي ليست قضية شكلية لمؤثر ومتأثر بقدر ما هي تعبير عن تمازج حضاري اوسع تتناول كل الاشكال الدينية والادبية والصوفية لنوع المعراج وتسربها الى اوربا النهضة ومظاهر تأثيرها في الكوميديا الالهية مضمونا وشكلا . رمزا ورؤيا صورا ودلالات في مقابلات ومقارنات رائعة فرضت سلطانها على ثقافة القرن العشرين لاكثر من ستة عقود وما زالت .

لقد استنفر الكتاب عددا غير يسير من الاستجابات على اطروحته التي ترسخت مع مرور الزمن وايدتها حركة البحث المتأخر .

وقد صنف بلاسيوس روايات المعراج ومطبوعاته والمؤلفات التي تتصل بهذا النوع الادبي الفذ ، واحصى كل ماوقعت يده عليه حتى زمن تأليف الكتاب ونشره (١٩ — ١٩١٨ م) ورتب ذلك في دوائر ثلاث :

الاولى : دائرة الأسراء .

الثانية : دائرة المعراج .

الثالثة : دائرة تدمج الدائرتين الاولى والثانية معا ، مبتدئا بالقرآن فالسنة فالقصص الاسلامي المتعلق بهما منتقلا الى الاشكال الادبية التي تصل بالقصة وجذورها في الفلسفة الاسلامية وتشكلها تشكلا جديدا في اطار الرموز الصوفية .

وقد استوفى المؤلف مصادره المتنوعة وتناولها تناولا مقارنا يعتبر الاول في هذا الباب .

ولما كانت الاوساط الادبية عندنا لم تتعرف حقيقة على المعراج كنوع ادبي متميز ، ومحصولها من البحث في هذا الاتجاه فقير وانها واقعة تحت سيطرة العصرنة والتحديث وما يستتبع ذلك من تصنيف ، فلم يحظ هذا النوع باهتماماتها وادرجته في باب القصص الديني واهملته جاهلة اهميته الفلسفية والفكرية وخطورته الادبية .

لذلك تشوهت القضية التي تناولها بلاسيوس في كتابه وانتقل التركيز من الاصل وهو المعراج الى الفرع كرسالة الغفران ، واخرجت الاطروحة من محورها الاساسي وتشتتت في ذهن القارىء العربي على الاقل .

إن المعراج هو النموذج الاصل للرسالة ، احتذاه المعري واستعار اطاره وتركيبه ليطرح من خلالهما نقده الفكري والديني والادبي والاجتماعي .

وتوافق الرسالة هوى المثقف العربي الذي يبشر بالعلمانية ولا يمارسها ، ويتخذ من الدين موقفا سلبيا ولا يعرفه معرفة صلبة ويجهل ثقافته الاسلامية ، فرسالة الغفران اكثر استجابة لهذا الموقف الفكري المستلب، ويمكن معه القول إن المتنور العربي لا يقرأ حقيقة قصص المعراج بكل انواعه ويتركها إما للمختصين على ندرتهم او للثقافة الشعبية والفولكلورية التي تتعلق بالاشكال وتنسى اصولها الحضارية وجوهرها الفكري .

وليس مبالغة القول : إن المطبعة العربية لم تطبع كتابا واحدا للمعراج يمكن أن يأنس له القارىء العربي وتركت طبعات الرصيف الصفراء تنتظر من ينفض عنها الغبار وينقلها الى دوائر الوعي .

ورغم أن آسين بلاسيوس قد افرد حيزا خاصا في كتابه **(الاسلام والكوميديا الإلهية)** ناقش فيه مؤثرات **الرسالة** على **الكوميديا** في اطار الفرضية والتخمين الذي يستند على المقابلة والمقارنة بين المواضيع والافكار والصور والاساليب لكل من المؤلفين غير انه لم يستطع ان يؤيد مقارناته المقنعة وتحليله الادبي الآسر بالوثائق الفعلية مفترضا انه لا بد للرسالة وقد سبقت الكوميديا بما لا يقل عن خمسة قرون من أن تتسلل الى اوساط الثقافة الاوربية الناشئة بدءا من القرن الثالث عشر عبر الوسائط الحية الشفهية إن عبر الاندلس او صقلية وجنوب ايطاليا او الفترة الصليبية أو عبر ترجمات مكثفة لمصادر تفسير القرآن والسنة(١). ونحن مع الاستاذ عيسى الناعوري وبنت الشاطىء من ان نقاط الالتقاء بين الرسالة والكوميديا لا تتعدى الاطار العام والحوار بين صاحب الرحلة وسكان الجحيم والجنة .

اضف اليه أن فلسفة كل من المعري ودانتي وخلفياتهما ومزاجهما تختلف اختلافا أساسيا بل إنهما ليتقاطعان ايضا في نظرتيهما للوجود والحياة والموت والعقائد الدينية . فدانتي تصوفي شمولي رمزي يؤكد على النعمة الإلهية والحب الروحاني بينما تقوم الرسالة على التشكك والهزء بأوهام الناس في قضايا الثواب والعقاب(٢) .

٢ ـ الكوميديا واشاراتها الاسلامية

الكوميديا الإلهية هي ملحمة شعرية قصصية لمؤلفها دانتي الالجيري الذي كتبها في مطالع القرن الرابع عشر الميلادي ، وتتالف هذه الملحمة من ثلاثة اقسام : الاول الجحيم والثاني المطهر والثالث الفردوس ، وهي من ملاحم الرحلات في العالم الآخر كالمعراج* ورسالة الغفران اللذين سبقاها والفردوس المفقود لملتون(٣) .

وتعتبر الكوميديا الإلهية مع ملحمة « اغنية رولان » نقطة انطلاق الآداب الاوربية الحديثة لتحولها عن التعبير باللاتينية الى اللغات الرومانسية . وتكتسي الكوميديا الإلهية اهمية خاصة بالنسبة لنا نحن العرب للعلائق

التاريخية والموضوعية بينها وبين قصص المعراج ، هذه العلائق التي درسها آسين بلاسيوس بالتفصيل في كتاب بالاسبانية نشره في مدريد عام ١٩١٩ وترجم الى عدد من اللغات الاوربية .

وللكوميديا مستويات متعددة ادبية ودينية وفقهية ورمزية وحضارية وتصوفية . وتعتبر الكوميديا قصة رمزية Allegory لخبرة دانتي الروحية ومساره من عالم المادة الى عالم الروح وعروجه من الجحيم الى النعيم مرورا بالمطهر حيث تتطهر الارواح من ادرانها وتستحق الانتقال الى النعمة الإلهية .

والذي يؤكد اعجاب دانتي بمآتي الحضارة الاسلامية كونه احل ابن رشد وابن سينا في « الليمبو » كاعظم مفكري اليونان وفلاسفتهم لكونهما حازا على فضائل العقل وحرمانهما نعمة الروح فما هما في الجحيم ولا هما في الجنة بل في منزلة بين المنزلتين(٤) .

كما انه احل صلاح الدين الايوبي في المنزلة نفسها لانه مع حرمانه نعمة الايمان المسيحي فقد حاز على نعمة الفضائل الخلقية فهو في نظر دانتي لا يستحق النار ، وهذا يعكس اعجاب اوربا بعد الحروب الصليبية بفضائله الشجاعة ومعاملته السمحة لرعايا المسيحيين وخاصة الاسرى منهم بعد انتصاره في المعارك الفاصلة عليهم(٥) .

ويتناقض مع هذا التقدير الذي يحمله دانتي للاخلاق العربية والاسلامية وللخدمات الفكرية والحضارية التي اداها العرب والمسلمون للغرب مع موقفه من الاسلام كدين وعقيدة فقد احل كلا من الرسول العربي صلى الله عليه وسلم وعلي رضوان الله عليه في الدائرة الثامنة من الجحيم لاعتقاده أن الدين الاسلامي هرطقة وبدعة على النصرانية .

مهما يكن فان اهتمام دانتي بالافكار والعقائد والاخلاق الاسلامية وموقفه من رجالها سلبا او ايجابا يعكس لنا ولو بايجاز معرفته الاكيدة بالاسلام ومصادره الاساسية .

هذه الاشارات الرمزية التي لا يمكن أن تكون اشارات عابرة لمعرفة سطحية .

٢ ـ مخطوطة المعراج الاندلسية والترجمة

كان الدانتيون يحتجون دائما على نظرية المؤثرات العربية الاسلامية على شاعرهم بكونه لا يعرف اللغة العربية ، فليس من المعقول اذن ان يتأثر بالمعراج وما يتصل به من قصص ديني وصوفي وادبي . وعلى فرض انه قرا بعض ترجمات القرآن والسيرة الى اللاتينية ، فما ورد فيهما من وصف النعيم والجحيم وما جاء في السيرة المترجمة من ذكر الاسراء والمعراج لا يشكل خلفية كافية أو ارضية صلبة لنظرية خطيرة كنظرية آسين بلاسيوس(٦) .

لكن محاربة واقع التاريخ بالمنطق لا يؤدي الا الى نتائج منطقية بعيدة عن الحقيقة والواقع الذي لا ينكره دارس منصف .

كانت العلوم الاسلامية تدرّس في مدارس ـ رعاها الفونسو العاشر (٨٤ ـ ١٢٢١) ـ للاسبان والاوربيين والمسلمين الاندلسيين على حد سواء وقد استمر حكمه قرابة ثلث القرن (١٢٨٤ ـ ١٢٥٢) .

إن مؤسسة الترجمة التي رعاها هذا الملك الحكيم كانت قبلة أنظار المهتمين بفلسفة المسلمين وعلومهم وآدابهم . وتسرب هذه الترجمات الى أوربا وخاصة فرنسا وايطاليا اصبح حقيقة واقعة كشفت عنها بحوث كثير من المستشرقين على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم .

ونحن الآن على يقين من ان قصة كاملة من قصص المعراج واكثرها سعة وتفصيلا قد ترجمت الى اللغات الكاستيلية الاسبانية واللاتينية والفرنسية في وقت واحد من القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٤ م) اي بما لا يقل عن اربعين سنة من انجاز دانتي الالجيري للخطة العامة للقسم الاول من كوميدياه الإلهية (١٣٠٥ م)(٧) .

كما ان بعض المترجمين الذين تعاونوا مع الفونسو المار ذكره كانوا من الطليان وان برونيتو لاتيني صديق دانتي واستاذه ومستشاره الادبي الذي تحلى بثقافة موسوعية كان سفيرا في كاستيل (١٢٦٠ م) حوالي التاريخ الذي ترجمت فيه النسخة الاندلسية للمعراج الى اللغات الثلاث المذكورة آنفا . وكان مستقره في طليطلة واشبيلية حيث تمركزت مؤسسات التربية والتعليم والثقافة والترجمة وقد لعب العرب دور المؤثر والمحرض إن بالتماس المباشر او عبر الترجمة ، فتلقف منهم الطليان والاسبان والفرنسيون علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم .

واذا كان يسهل على الباحث ان يحدد المؤثرات في تلك العلوم ويحدد المصادر التي ترجمت الى اللغات اللاتينية والرومانسية فانه من الصعوبة بمكان ان يحسم ويقرر في قضية المؤثرات في العلوم الانسانية والآداب لقلة الترجمات منها بالنسبة الى الترجمات العلمية والفلسفية ، الا انه واضح في اذهان المستشرقين ان القرآن والسيرة وجزءا هاما من الحديث قد نقلت الى اللاتينية منذ اواخر القرن الثاني عشر الميلادي . والخلاف بين الدانتيين واخصامهم لا يتناول المؤثرات العلمية والفلسفية الاسلامية على الحضارة الغربية بقدر ما يتناول قضية الكوميديا الإلهية بالذات ومصادرها والمؤثرات الاسلامية عليها وبكونها عملا شعريا ابداعيا فان مسألة الحسم فيها اكثر صعوبة ولكونها ايضا تعتبر نقطة انطلاق الآداب الاوربية الحديثة في عصر النهضة واستقلالها عن اللاتينية وتوسل الرومانسية في التعبير بدلا عنها .

مهما يكن ، لقد اصبح ثابتا لدى الباحثين المنصفين من المستشرقين ان قصص المعراج بالذات لم ينتقل الى الغرب بالوسائط الحية او بترجمات مجتزأة تتضمن خلاصات عنها كتفاسير القرآن والسيرة وكتب الحديث والتاريخ فحسب بل ان هناك ترجمة فعلية لما وصفناه بالنسخة الاندلسية لقصة المعراج الى اللغات الفرنسية واللاتينية والاسبانية (الكاستيلية) وهي من اطول القصص واكثرها اسهابا وتفصيلا واحسنها

بناء وتركيبا واغناها بصور الضوء والعطر واللون والصقها بالتعبير الادبي المبدع وابعدها عن الفقه وعلوم التفسير والحديث مع حسن الاقتباس والاستشهاد من القرآن والسنة وتنزهها عن النزعة التعليمية وشفافية رموزها واشاراتها .

وقد كنت الى امد قريب غير مقتنع بنظرية بلاسيوس حتى وقعت على هذه الترجمة لانها تشكل في نظري برهانا وثائقيا ثابتا كانت هذه النظرية بأمس الحاجة اليه .

وقد نشر هذه الترجمة الثلاثية وحققها مع مقدمة مستفيضة وتعليقات بالاسبانية خوزي مونوز سنديno Jose, Munos Sendino في مدريد عام (١٩٤٧ – ٤٩) بواسطة المديرية العامة للعلاقات الثقافية ورعاية وزارة الخارجية في كتاب تضمن دراسة مسهبة لهذه المخطوطة بالاسبانية وتعليقا على ترجماتها الثلاث ، وينوف الكتاب على (٦٦٠) صفحة من القطع الكبير .

ومن حسن الحظ ان الترجمة الفرنسية كانت متضمنة في هذا العمل النفيس فاعتمدت عليها اعتمادا اساسيا رغم ان فرنسيتها هي فرنسية القرن الثالث عشر فذللت صعوبتها بالجهد والصبر المتواصلين وقرات المخطوطة قراءة كاملة واكتفيت هنا باختزال ابوابها العامة آملا ان يعثر الباحثون على اصل المخطوطة العربي أو يترجمها المهتمون الى اللغة الام. أما الاسبانية فاضطررت الى الالمام بها لاتمام كتابة هذه الدراسة ، ولفهم جزء غير يسير من مداخلات الاستاذ سنديno وتعليقاته وشروحه آملا ممن يجيد الاسبانية من العلماء العرب أن يترجم هذه الدراسة النفيسة ودراسة آسين بلاسيوس على السواء لما لهما من أهمية تتصل بتراثهم وادبهم .

٤ ـ ابواب مخطوطة المعراج الأندلسية وأقسامها العامة

الفصل الاول : الكلام عن مجيىء الملك جبرائيل الى محمد وما قاله له .

الفصل الثاني : الكلام عن الدابة التي قادها جبرائيل الى محمد واسرى عليها الى المسجد الاقصى في القدس .

الفصل الثالث : الكلام عن الاصوات التي نادت محمد وما قاله جبرائيل عنها له .

الفصل الرابع : الكلام عما فعله محمد في المسجد ووجده قبل ان يؤدي صلاته ويتلوها .

الفصل الخامس : الكلام عن شكل المعراج الذي عرج عليه محمد الى السماء .

الفصل السادس : الكلام عن صعود محمد المعراج ورؤيته ملاكا عظيما في الفضاء وعما قاله لمحمد عنه وعن امته .

الفصل السابع : الكلام عما سمعه محمد من الملاك قبل أن يرى ويسمع ملاك الموت وعن الامور التي سأل عنها واجابته عليها .

الفصل الثامن : الكلام عن ملاك الموت وكيف يقبض أرواح النفوس الصالحة والشريرة .

الفصل التاسع : الكلام عن محمد ورؤيته ملاكا على هيئة ديك وملاكا آخر نصفه من نار ونصفه الآخر من ثلج وعما أوكل اليه .

الفصل العاشر : الكلام عن محمد ورؤيته خازن الجحيم وعما قاله له عن أمته .

الفصل الحادي عشر : الكلام عن محمد وسؤاله مالك خازن النار وعن الامور الكثيرة التي قالها له وكيفية الجواب عليها .

الفصل الثاني عشر : الكلام عن محمد ودخوله السماء الاولى وما رآه فيها .

الفصل الثالث عشر : الكلام عن السماء الثانية .

الفصل الرابع عشر : الكلام عن السماء الثالثة .

الفصل الخامس عشر : الكلام عن السماء الرابعة .

الفصل السادس عشر : الكلام عن السماء الخامسة

الفصل السابع عشر : الكلام عن السماء السادسة .

الفصل الثامن عشر : الكلام عن السماء السابعة .

الفصل التاسع عشر : الكلام عن السماء الثامنة .

الفصل العشرون : الكلام عن خطاب الله تعالى لمحمد ورؤيته للعرش .

الفصل الواحد والعشرون : الكلام عن محمد ورؤيته للملائكة الذين يحملون عرش الله تعالى .

الفصل الثاني والعشرون : الكلام عن رؤية محمد واصناف الملائكة في السماء أو حيث العرش الذي تكلم عنه فيما سبق .

الفصل الثالث والعشرون : الكلام عن محمد ورؤيته ملائكة وعن كيفية صورهم .

الفصل الرابع والعشرون : الكلام عن محمد بين الملائكة ورؤيته انواع الانهار المختلفة وجبال الثلج .

الفصل الخامس والعشرون : الكلام عن محمد ورؤيته بحرا عظيما حيث الملائكة والسماء المحاطة بالانهار .

الفصل السادس والعشرون : الكلام عن الله تعالى وخلقه كائنات كثيرة وانواعا مختلفة من المخلوقات .

الفصل السابع والعشرون : الكلام عن ارض بيضاء خلقها الله تعالى لاوليائه ومخلوقات فيها .

الفصل الثامن والعشرون : الكلام عن محمد كيف راى في لحظة واحدة كل ما لم يره من قبل .

الفصل السابع والخمسون : الكلام عن ارض الجحيم الرابعة .

الفصل الثامن والخمسون : الكلام عن ارض الجحيم الخامسة .

الفصل التاسع والخمسون : الكلام عن ارض الجحيم السادسة .

الفصل الستون : الكلام عن ارض الجحيم السابعة .

الفصل الواحد والستون : الكلام بعد ذلك عن سهل كله من النار قرب الجحيم عن عذاب النار عندما يقترب يوم الحساب .

الفصل الثاني والستون : الكلام عن خلق الله تعالى (طبقات) اراضي الجحيم السبع التي سبق ذكرها وعن اسم كل منها .

الفصل الثالث والستون : الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن القدرة وعن الامور التي في يوم الحساب واجابته عليه .

الفصل الرابع والستون : الكلام عن سؤال آخر وجهه محمد الى جبرائيل حول طبقات الجحيم السبع السابق ذكرها واجابته عليه .

الفصل الخامس والستون : الكلام عن سيدنا تعالى وخلقه اللوح والقلم .

الفصل السادس والستون : الكلام عن كيفية جمعه للبشر في يوم الحساب وصفة حشرهم .

الفصل السابع والستون : الكلام عن يوم الحساب وقضاء الله تعالى .

الفصل الثامن والستون : الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن السموات والاراضي وامور اخرى مرئية وغير مرئية واجابته عليها .

الفصل التاسع والستون : الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن جبل القاف فيما اذا كان مأهولا ام لا وعن امور اخرى واجابته على ذلك .

الفصل السبعون : الكلام عن هبات الله تعالى وقسمته لمخلوقاته .

الفصل الواحد والسبعون : الكلام عن محمد وزيارته الجحيم وبواباته واشياء اخرى .

الفصل الثاني والسبعون : الكلام عن وصف جبرائيل لمحمد انواع العذاب ومراتبه في الجحيم .

الفصل الثالث والسبعون : الكلام عن حيوان عجيب يجعله الله يسير امامه في يوم الحساب .

الفصل الرابع والسبعون : الكلام عن محمد وسؤاله جبرائيل عن الحيوان السابق ذكره واجابته على ذلك .

الفصل الخامس والسبعون : الكلام عن اجابة جبرائيل لمحمد عن سؤال سأله اياه عن يوم الحساب اكبير هو ام صغير .

الفصل السادس والسبعون : الكلام عن صفة السراط وما يجب على المرء لاجتيازه وواجبات المرور عليه .

الفصل السابع والسبعون : الكلام عن جبال حول السراط المار ذكره وانهار من النار واشياء اخرى كثيرة .

الفصل الثامن والسبعون : الكلام عن امة محمد وكيف سيتفرق شملها وكيف ستجتاز حد السراط .

الفصل التاسع والسبعون : الكلام عن محمد ورؤيته انواع العذاب المختلفة التي يعذب بها الخطاة في الجحيم .

الفصل الثمانون : الكلام عن جبرائيل يترك محمد ويودعه وعودته الى منزله .

الفصل الواحد والثمانون : الكلام عن محمد ووصفه لبني قريش العجائب التي شاهدها .

الفصل الاثنان والثمانون : الكلام عن محمد يعدد كل الامور التي رآها لبني قريش وتكذيبهم اياه (استجابتهم له) .

الفصل الثالث والثمانون : الكلام عن تكذيب القريشيين لمحمد وسؤالهم اياه ليصف لهم القافلة .

الفصل الرابع والثمانون : الكلام عن محمد واجابته على القريشيين وادعاءاتهم وقوله لهم الحقيقة .

الفصل الخامس والثمانون : الكلام عن تدوينه كل الامور التي سبق ذكرها وهكذا الف كتاب اسماه بالمعراج(٨) .

٥ ـ بعض نقاط الالتقاء بينها وبين الكوميديا

للذين يودون ان يتوسعوا في موضوع مؤثرات المصادر الاسلامية في ملحمة دانتي ليس لهم الا ان يرجعوا الى كتاب آسين بلاسيوس الذي اثبتت البحوث الحديثة صلب نظريته رغم الخلاف على جزء كبير من التفاصيل وهي أن شاعر النصرانية الاكبر مدين لهذه المصادر .

والابحاث المقارنة اليوم لا تعنى بالمؤثر والمتاثر من الادب تحت طائلة الاخذ أو النقل المباشر فالاواصر بينهما قد تقتصر على الايحاءات الغامضة التي يوحيها مؤلف لمؤلف او عمل ادبي على عمل ادبي آخر دون معرفةاللغة الاصلية بالضرورة، وفي حال كهذه قد يكون التاثير ابلغ فعلا واعمق اثرا لان المتاثر يذعن للتصورات والخيالات التي يثيرها هذا العمل او ذلك في مناخات من الايحاءات لا ترتبط عضويا بالاصل المؤثر .

او تتعدى علاقة المؤثر بالمتاثر الى عناصر بعينها من الادبين أو المؤلفين او العملين او المدرستين أو العصرين كالموضوع والاسلوب ومايرافقهما من بنى فكرية ونفسية وفنية .

ورغم اصرار بلاسيوس على التفاصيل من حيث العلاقة بين ملحمة دانتي والمصادر الاسلامية فأنا اميل الى الاعتقاد بأن المؤثرات الاسلامية تتناول التصور العام اكثر ما تتناول الجزئيات في ملحمة الشاعر الالجيري .

كما اعتقد ان هذا التصور انعكس اكثر ما انعكس في قسم الجحيم من ملحمة الشاعر اما المطهر الذي يذكرنا بالاعراف فيكاد يكون رمزا منفصلا عن قصص المعراج والصق بالمصادر القرآنية كالتفاسير وغيرها .

فالاعراف وهي جدران تفصل بين النار والجنة لايمكن ان تشكل أصلا لمفهوم المطهر ، كما ان « الموقف » الذي ينتظر فيه ابن القارح ستة اشهر ليدخل الجنة في رسالة الغفران لا يمكن أن يوحي بمفهوم المطهر ايضا .

واقرب شيء في نظرنا لهذا المفهوم من الناحية الفكرية والفلسفية لا من الناحية الفنية هو مفهوم المعتزلة من ان مرتكب الكبيرة هو في منزلة بين المنزلتين لا في الجنة ولا في النار حتى يحكم الله فيه يوم القيامة .

اما ان يكون دانتي قد ركب اقانيم « الاعراف » والمفهوم المعتزلي الفلسفي وظاهرة « الموقف » الفنية في رسالة المعري في كل واحد هو « المطهر » فهو امر يستبعده البحث الرصين مع كونه ممكنا .

اما القسم الثالث والاخير من ملحمة دانتي وهو « الفردوس » فالمؤثرات تناول البناء الفني والخيال العام لا المفهوم الروحي أو الفلسفي ، واياما كان الامر أمر الجزئيات والتفاصيل وعناصر المؤثر والمتأثر فان الكوميديا الالهية ككل ولدت في مناخات الحضارة العربية ورحم آدابها مع كونها كائنا مستقلا متميزا يعبر عن تصور روحي مغاير للموت والحياة والعالم الآخر .

ان المعراج بتمايز اقسامه وتنوع نماذجه وكثرتها واستمراره كنوع ادبي قائم بذاته ودخوله في الطقوس الدينية والصوفية هو السابق ، هو النموذج للكوميديا الالهية .

ويؤكد الاستاذ سنديتو على اهمية النسخة الاندلسية للمعراج وترجمتها

ويستمر مستفيضا بدقة وموضوعية على خطة بلاسيوس في الكشف عن التقابل بينها وبين الكوميديا الالهية متوسلا منهجه في تحليل الرموز والصور والافكار ومقابلاتها في نصي المعراج والكوميديا . نخص بالذكر منها الامور الآتية :

اولا : لقد قاد دانتي عبر رحلته كل من « فرجيل » و « ماتيلد » و « بياتريس » و « سان برناردو » بالتتابع وقد اسبغ الشاعر على كل من هذه الشخصيات اهمية خاصة ورمز بها الى مستوى من مستويات الروح ففرجيل يمثل التراث كما يمثل العقل وماتيلدا وهي صديقة بياتريس حبيبة دانتي تمثل الحياة المجسدة الحية وبياتريس تمثل الحب الالهي وسان برناردو يمثل النعمة السماوية وهكذا .

اما الرسول العربي فقد قاده في صعوده كل من جبريل ملك الوحي معرجين الى عزرائيل ملك الموت ومالك خازن الجحيم ورضوان حارس الجنة . ولا يخفى ما بين هذه الشخصيات وشخصيات دانتي من تقابل في الرؤيا والرمز .

ثانيا : يطول بنا الكلام اذا اردنا الوقوف عند الصور الجزئية التي تناولها سنديتو بالتحليل والمقارنة لذلك نكتفي منها بالالماع الى صورة النسر العظيم الذي يتشكل من افواج من الملائكة في ملحمة دانتي . وهي من اعظم الصور الابداعية التي خبلت عقول الدانتيين . هذه الصورة بالذات تذكر كلا من بلاسيوس وسنديتو بصورة ديك العرش في المعراج . راسه تحت العرش وقدماه في الارض السابعة . وهو ملاك ضخم على صورة الديك يسبح الله في ضوء الالوهة ويصيح فتردد معه ديوك الارض وخلائقها في السموات والارض هذا التسبيح جوقة واحدة .

ثالثا : الامر الذي استرعى انتباه سنديتو وادهشنا هو ان كثيرا من

اوصاف الجبال والوديان والانهار في النسخة الاندلسية المترجمة للمعراج وتركيبها الطوبوغرافي وبنية التصور العام لا يتشابه مع الكوميديا الالهية فحسب بل يكاد يتطابق في اقسام كثيرة منهما .

وتتمايز نسخة المعراج الاندلسية عن باقي المعاريج بكونها تناسب بين الصعود في السماوات السبع ، مخصصة سماء ثامنة منفصلة لله العلي الاعلى ، والهبوط في الارضين كجزء من الرحلة الى النار .

فالسماء الاولى وهي من الحديد هي كرسي يحيى وعيسى .

والسماء الثانية من الرصاص وهي ليوسف .

والسماء الثالثة من الفضة وهي كرسي الياس وأدريس .

والسماء الرابعة من ذهب وهي لهارون .

والسماء الخامسة من لؤلؤ وهي لموسى .

والسماء السادسة من فيروز اخضر وهي لابراهيم .

والسماء السابعة من عقيق فهي لآدم .

اما السماء الثامنة فهي من الياقوت وهي كرسي العرش .

ويقابلها طبقات الاراضين السبع في الهبوط الى الجحيم :

الارض الاولى وهي أرض الجلادة .

والارض الثانية وهي الارض العرقاء او الارقى « Arka »

والارض الثالثة وهي الارض الخرباء .

والارض الرابعة هي ارض المطع .

والارض الخامسة وهي الارض الزاهقة .

والارض السادسة وهي الارض الحاجب .

والارض السابعة وهي الارض الفلق .

وكذلك تتناسب وتتقابل ابواب الجحيم مع بوابات النعيم تقابلا ملحوظا اما ابواب الجحيم فهي سبع وتجري كما يلي :

باب جهنم ، وباب اللذعة وباب الحطمة وباب الظاهر او الزائر ثم باب سقر وباب الجحيم وباب الكاوية .

تقابلها فراديس النعيم السبع ، وهي كما يلي :

فردوس عدن ، فردوس الجلال ، فردوس السلام ، فردوس المأوى ، فردوس الخلد ، دار الفردوس ، النعيم .

فالتصور العام والخيال المعماري لكل من النسخة الاندلسية للمعراج والكوميديا الالهية يتلاقيان في العديد من سماتهما البارزة ان نحن تجنبنا الاغراق في التفاصيل والامور الجزئية .

ذلك كله كان في متناول المتنور الاوربي لا عبر الوسائط الحية والشفهية بل باللغات المكتوبة عبر الترجمة التي رعتها المؤسسات العلمية للدولة فكانت هذه الترجمة المثلثة البركات .

اما ان يريد الدانتيون التمحل في وصول او عدم وصول هذه الترجمة الى شاعرهم فهو امر تنفيه القرائن . ان النسخة الاندلسية للمعراج بما تحتويه من نقاط التقاء مع الكوميديا الالهية في البناء العام او الشخصيات والتصوير الفني وكون هذه النسخة متداولة في دور العلم باللغات الحية للثقافة الاوربية في مطالع عصر النهضة لاتدعم نظرية بلاسيوس فحسب بل بحسمها حسما اكيدا في صالح المؤثرات الاسلامية. وللاستاذ سنديتو الشكر الجزيل على جهوده العلمية الرائعة لاعلى نشره هذه المخطوطة النفيسة La Escala de Manama فحسب بل على دراسته المصاحبة ومداخلاته ومقدماته وحواشيه وتوثيقه التي لا تقل قيمة عن اسهام بلاسيوس وانجازه (٩) .

خاتمة

ويهمنا ان نؤكد في هذه الخاتمة ان الحضارات لاتلد من الفراغ والنهضات لاتنشأ من العدم وان الحضارة الانسانية كل لايتجزأ وللبشرية جمعاء ان تعتز بهذه الحضارة ومشاركاتها فيها كائنا ما كان حجم هذه المشاركات . اما الذين يريدون ان يقسروا المقولات العرقية او المذهبية او الدينية على هذه الحضارة ويطوبونها لهذا العرق او هذا الشعب او يخرجون من شرف انشائها وبنائها هذه الامة او تلك فانهم لايزالون يعيشون في ربقة افكار سلفية بالية اوجدتها عبود منقرضة من الاستعمار الفكري والسياسي نادت بتفوق جماعات من البشر على جماعات اخرى من اجل السيطرة والهيمنة الاقتصادية على ثرواتها وخيراتها وابقاء الفكر الانساني في عتمة الاستئثار والاحتكار بعيدا عن روح التحرر التي اخذت تنهض الشعوب من كبواتها وجعلتها تدرك مكانتها من حضارة الانسان المتكاملة الواحدة ان عمقا في التاريخ من حيث السياق الزمني او من حيث المكان على هذه الارض .

وهذه حضارات ما بين النهرين ووادي النيل انفتح بعضها على بعض اقتباسا وتمثيلا وتوليدا ، ثم هذه حضارات اليونان والرومان التي تمثلت حضارات الشرق واضافت عليها ثم جاء العرب والاسلام وجاءت معهم اكبر حركة استيعاب فكري وثقافي في التاريخ فهضموا في آن تراث الهند واليونان وفارس والرومان كما هضموا تراث ديانات التوحيد هضما كليا تكشف لنا في فقههم وادبهم وعلم كلامهم وتصوفهم وفلسفتهم ثم اضافوا الى ذلك كله مولدات فكرهم واختباراتهم في شتى الحقول وقدموه لاوربا فنهضت شعوبها بحيوية جديدة تجلت في حركة اكتشاف رائعة في المكان والزمان والتراث والاكتشاف العلمي آخذة بيد البشرية صوب الازمنة الحديثة .

ولم يتم ذلك كله عفوا او عن طريق المصادفة بل غالبا ماكان يأخذ شكل المؤسسة المنظمة الواعية لدور العقل والحضارة في اسباغ نعمة التقدم على الامم . فهذه مدرسة الحكمة في بغداد ترث مدارس السريان فتنظم عملية الترجمة والتمازج التراثي برعاية المأمون يقابلها مدرسة طليطلة واشبيلية التي رعاها الفونسو الحكيم، وتمت عن طريقها ترجمات عديدة في كثير من الميادين ومن بينها ترجمة ما اسميناه بالنسخة الاندلسية للمعراج ترجمة كاملة الى لغات ثلاث هي الوسائط الاساسية في عمليات التمازج العلمي والثقافي والفكري بين اوربا والعرب .

ويهمنا ان نؤكد هنا ان ولادة الآداب الاوربية كولادة فنون عصر النهضة وحركات اكتشافه الجغرافي والعلمي والفلسفي لايمكن ان تفهم فهما كاملا ان هي عزلت عن مؤثراتها العربية والاسلامية وان حركة بحث منظم في الآداب يقود الى ما قادت اليه حركة البحث المنظم في الفلسفة والعلوم وهي ان فنون اوربا وآدابها في عصر النهضة والتكوين تنفست الحياة في رحم الانجازات الحضارية العربية والاسلامية .

وهذه ملحمة رولان (Chamon de Rollan) كتبها الشاعر استجابة لحركة الفتوح الاسلامية بين جيوش شارل مارتل والجيوش الاسلامية. ثم هذه حركة شعراء « التروبادور » وبزوغ الشعر الغنائي في اللغات الاوربية وخاصة شعر الحب لا يمكن عزلهما عن حركة الموشحات وشعر الغزل ووصف الطبيعة وهو امر لم يغفله المختصون من المستشرقين في دراساتهم المسؤولة المنزهة .

وملحمه الكوميديا الالهية لدانتي التي تعتبر منعطفا مهما في نشاة الآداب الاوربية لم تكن تشذ عن عملية التمازج الثقافي هذه بل ان نشاتها لتتصل اتصالا مباشرا بمؤثرات المعراج وتصوراته الفكرية والغيبية وبنيته الفنية .

الهوامش :

(١) عيسى الناعوري **ادباء الشرق والغرب** . بيروت ١٩٦٦ . ص ١١٤ — ١٢٢ .

(٢) انظر Palacios، ص ٢٦٣ — ٢٤٦ .

(٣) **The Comedy of Dante Alighieri** , Tramlated By Dorothy L. Sayers . England 1968 - 1967 -
I Hell - II Purgatory III Paradise .

(٤) انظر — I.hell ص ٩٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٩٤ .

(٦) Asin Palacios, **Islam And The Divine Comedy**,Translatel Byharold Sutherland N. Y. 1968 . PP . 54 - 67

(٧) La Escalade Mahoma, Traduccion Delarabe Al Castellano, Latin Y. Fraences, Ordenda Por Al Fonso x El Sabio, Edicion, Introduccion-y Notes Por Jose Munóz Sendino Madrid 1949 .

انظر ايضا Palacios، الهامش رقم ٦ .

(٨) La Escala de Malloma PP. 254 - 263 .

(٩) Dorthee Metlitski, The Matter of Araby In Medieval Enqland, Yale 1977 .

وصفت مخطوطة اكسفورد المعراج واغفلت ذكر سنديو .